مركزية مفهوم الإنسان الكامل في المشروع الأخلاقي عند النورسي ودوره في تشييد مستقبل الإنسانية
مقاربة لمفهوم الإنسان الكامل عند النورسي

د. سعيد الغزاوي(*)

تسمح بعض المفردات الواردة في ورقة المؤتمر بالتقاط ما يسمح بإضافة نوعية في البحوث المشاركة، مفردات تود توجيه الباحثين إلى أهمية الإنسان في المشروع الإصلاحي عموما، وعند الأستاذ سعيد النورسي بشكل خاص. مفردات مثل "وبينما تنظم السياحات إلى أبعد المسافات وفي أعماق الفضاء، لا يعثر على طريق أو سبيل للولوج إلى العالم الداخلي للإنسان".

ومثل "وهل يمكن أن يكون نضوب المعنويات ونقصان الإيمان الحافز إلى الخير والذي يحمي الإنسان من التجاوزات والتطرف، سببا ودافعا ومصدرا لكل هذه المشاكل؟ "

مما جعلني أختار محور "مفهوم الأخلاق الكلي ومستقبل الإنسانية " لصلته الوطيدة بورقة المؤتمر، ومعالجته مشاكل هذا العصر.

تنطلق هذه الدراسة من طرح الفرضية التالية: " مركزية مفهوم الإنسان الكامل في المشروع الأخلاقي عند النورسي ودوره في تشييد مستقبل الإنسانية"

للتحقق من صحة هذه الفرضية سوف نبحث في كليات رسائل النور عند الأستاذ بديع الزمان النورسي عن مفهوم الإنسان الكامل، وعن مشروعه الأخلاقي في علاقته بتشييد مستقبل الإنسانية.

(*) كلية الآداب ابن مسيك الدار البيضاء- المغرب lghazaoui@maktoob.com

وسيتم التحقق عبر محورين يعالج أولهما "مفهوم الإنسان الكامل عند النورسي". ثم يعالج ثانيهما "المشروع الأخلاقي النوري".

ثم نعود إلى الفرضية لتأكيدها أو دحضها :

- بين الإنسانية والإنسان الكامل:

تستحضر هذه الدراسة روح المرحوم فريد الأنصاري الذي وضع بكتابه "مفاتح النور" مرجعا مصطلحيا لمن يود الولوج إلى عالم الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: حيث يقف عند مصطلح "الإنسانية" لمركزيته في المشروع الإصلاحي عند النورسي، ولتميزه عنده على غيره ممن وقفوا عند مصطلح "الإنسانية" نفسه لأنه كما يقول الأنصاري: "من ألطف ما ورد عن النورسي من خصوصيات اصطلاحية مستنبطة من مفهوم "الإنسان" كما وجده؛ بتدبره رحمه الله للقرآن الكريم، وهذا اصطلاح قد لا تجده - بهذا المفهوم - عند غيره، يقول رحمه الله " ما يطلق عليه لفظ " الإنسانية " التي هي قصيدة حكيمة منظومة، تعلن إعلانا لطيفا جميع تجليات الأسماء الإلهية القدسية"[١]

وإن أنجزت دراسات عديدة حول مفهوم الإنسان عند الأستاذ النورسي، ضمن أشغال المؤتمر العالمي الخامس لبديع الزمان سعيد النورسي، أذكر منها دراسة الدكتور عمار جيدل "ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية من خلال رسائل النور" وهي دراسة أعترف بدقة متابعتها لماهية الإنسان، وصلة الماهية بالحرية، وأهمية القرآن بالنسبة للإنسان، وماهية الإنسان في فكر النورسي"[٢]. وقد توسع في هذه الدراسة وأصدرها في كتاب " ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية من خلال رسائل النور". إلا أن هذه الدراسة لم تقف عند البعد الكمالي للإنسان في صلته بالمشروع الإصلاحي الأخلاقي عند النورسي كما سنبرزه في هذه الدراسة.

كما أذكر دراسة المرحوم فريد الأنصاري " الإنسان ومفهوم الانتساب الإيماني عند الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي" التي تميزت بما عرف عنه من فكر تجديدي وعميق، فوقف عند مصطلح " الانتساب الإيماني " لأنه حسب عبارة الأنصاري: "من

---

(١) الدكتور فريد الأنصاري (مفاتح النور) ص ١٣٩.

(٢) الدكتور عمار جيدل "ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية من خلال رسائل النور" "المؤتمر العالمي الخامس لبديع الزمان سعيد النورسي " ص ٢٠٣.

أرفع (الأواني) التعبيرية التي قدم فيها مفهوم الإيمان بمعناه الوجداني ومقاصده الإصلاحية التجديدية " "المؤتمر العالمي الخامس لبديع الزمان سعيد النورسي."[١]

وأذكر دراسة الدكتور سلمان عشراتي " النورسي وجذور رؤيته الإنسانية " التي أشارت إلى استيعاب النورسي معنى الإنسانية ضمن وعي ديني كوني مفتوح على العالمية، ودققت في معاناة الإنسانية المعاصرة من الصراع الحضاري، وفي ديمومة تجدد الإنسان بديمومة تجديد الإيمان، وفي صلة الإنسان باليوتوبيا الإنسانية والإنسان الكامل بوصفه ارتكاز التوازن في هذه الحياة، ثم الإنسان الأرجح الذي ما تزال تستبقي فيه التنشئة المدنية جوهره البدوي الريفي، ثم بواعث سقوط النفس البشرية "[٢]. ورغم إلماحها إلى مصطلح " الإنسان الكامل " إلا أنها لم تطل عنده الوقوف بوصفه مفهوما مركزيا داخل المشروع الإصلاحي الأخلاقي النوري كما سنحاول في هذه الدراسة.

وأما دراسة الأستاذ عبد الوهاب بوخلخال " مباحث النبوة وعلاقتها بالإنسان من خلال رسائل النور"[٣]، فلعلها الأكثر ملامسة لمفهوم ومصطلح " الإنسان الكامل " عند النورسي، لكن انشغالها بمباحث النبوة لم يترك لها مجالا للوقوف عند هذا المصطلح إلا في المبحث الصوفي المنبت حول الحقيقة المحمدية، وفيه يتحدث عن صلة هذا المفهوم وأصله الصوفي ومفهوم "الإنسان الأكمل" الذي يعني به النورسي "الدليل الأعظم على الله تعالى وقد أظهر جميع ما بيناه من كمالات الإنسان وقيمته ومهمته ومثله"[٤].

ورغم رجوعي إلى كتاب "مفاتح النور" للمرحوم الأنصاري، وإقراري بما يشكله للأكاديميين من عمدة لكل من يروم دقائق وتفاصيل الفكر النوري، إلا أنني أزعم أن هذه الدراسات المذكورة آنفا رغم دقتها وجدتها لم تلتفت بشكل عميق إلى هذا المفهوم النوري الطريف والرفيع الذي يتتبع الإنسان خلال رقيه إلى مرتبة عليا تصل إليها قلة من صفوة الخلق من الأنبياء والمصلحين، فيوظف مصطلحا دقيقا هو مصطلح

---

(١) الدكتور فريد الأنصاري " الإنسان ومفهوم الانتساب الإيماني عند الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي " "المؤتمر العالمي الخامس لبديع الزمان النورسي ص ٢٢٧.

(٢) الدكتور سليمان عشراتي " المؤتمر العالمي الخامس لبديع الزمان سعيد النورسي" ص ١٨٣.

(٣) الأستاذعبد الوهاب بوخلخال "المؤتمر العالمي الخامس لبديع الزمان سعيد النورسي ص ١٠٧.

(٤) الأستاذ بديع الزمان النورسي " اللمعات " ص ٥٩٨.

"الإنسان الكامل" يوكل إليه أمر إنجاز مشروعه الإصلاحي / الأخلاقي. وإليكم سيرتي مع هذا المصطلح النوري:

وأنا أبحث في الفكر النوري حول موضوع الإنسان الذي تنطلق وتمتد الإنسانية منه، عثرت على مرتبة عالية يتبوأها الإنسان في مقامات السمو والاستخلاف التي أوجده الله للوصول إليها، فوقفت عند مصطلح" الإنسان الكامل"، بل وجدت الأنصاري يدعو الباحثين المدققين في المشروع الأخلاقي عند سعيد النورسي، إلى دراسته والتدقيق في صلته بالمشروع الإصلاحي النوري. فهو كما يعرفه " المسلم البالغ مقام الولاية، بخوضه بحر المعرفة القدسية، القائمة على الإيمان التحقيقي"[١]. إنه تعريف نوري يعترف الأنصاري بتركيبه من عدة نصوص من أقوال سعيد النورسي، ومنها قوله: "للوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل: وذلك بالتوجه القلبي إلى الله طوال سيره وسلوكه، وأثناء معاناته الروحية، التي تسمو بحياته المعنوية، أي الوصول إلى مرتبة المؤمن الحق، والمسلم الصادق، أي نيل حقيقة الإيمان والإسلام، لا صورتيهما، ثم أن يكون الإنسان عبدا خالصا لرب العالمين، وموضع خطابه الجليل، وممثلا عن الكائنات من جهة، ووليا لله وخليلا له، حتى كأنه مرآة لتجلياته سبحانه، وفي أحسن تقويم حقا فيقيم الحجة على أفضلية بني آدم على الملائكة. وهكذا يطير بجناحي الإيمان والعمل بالشريعة إلى المقامات العليا والتطلع من هذه الدنيا إلى السعادة الأبدية بل الدخول فيها "[٢].

إنه الإنسان الذي صنعه الله بتدبيره وقدرته، وهيأه لخلافته في الأرض، وأسجد له الملائكة تكريما وتشريفا، وعلمه الأسماء كلها، وجهزه بالسمع والفؤاد والنظر ليشيد حضارة متوازنة تؤسس الإنسانية وفق منظور متكامل. ولكي يرقى إلى مرتبة الإنسان الكامل هاته ينبغي العروج من الإيمان التقليدي إلى الإيمان التحقيقي: " فإن للإيمان حقائق غزيرة جدا إذ ترتبط حقائق كثيرة لأنوار ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى، ولسائر أركان الإيمان بحقائق الكون، حتى اتفق أهل الحقيقة على أن أجل العلوم قاطبة وقمة المعرفة وذروة الكمال الإنساني إنما هو في الإيمان والمعرفة القدسية السامية المنفصلة والمبرهنة النابعة من الإيمان التحقيقي. نعم إن الإيمان التقليدي معرض

---

(١) الدكتور فريد الأنصاري " مفاتح النور " ص ١٤٤.

(٢) الأستاذ بديع الزمان النورسي " المكتوبات " ص ٥٩٣.

لهجمات الشبهات والأوهام. أما الإيمان التحقيقي فهو أوسع منه وأقوى وأمتن وله مراتب كثيرة جدا."[١]

فإذا تساءلنا عن الآليات التي يقترحها الأستاذ النورسي للرقي بالإنسان من الإيمان التقليدي إلى الإيمان التحقيقي، فإنه يوجهنا إليها ضمن تصور جديد للطاقات والأحاسيس المذخورة في الإنسان والتي توجد في داخله ألوف منها، لكنه يدعونا إلى حسن توجيهها حتى تؤدي به إلى الكمال: " فما في فطرة الإنسان من رغبة ملحة ومحبة جياشة وحرص رهيب وسؤال شديد وأحاسيس أخرى من أمثال هذه، وهي أحاسيس شديدة وعريقة، إنما وهبت له ليغنم بها أمورا أخروية. لذا فإن توجيه تلك الأحاسيس وبذلها بشدة نحو أمور دنيوية إنما يعني إعطاء قيمة الألماس لقطع زجاجية تافهة "[٢].

ومن الأمثلة العملية لصرف هذه الأحاسيس وتوجيهها، نحو تربية سلوكية تعرج بالإنسان نحو الكمال، كما يشرحها الأستاذ النورسي: " أن سببا من أسباب عدم تأثير نصيحة الناصحين في هذا الزمان هو: أنهم يقولون لسيئي الخلق: لا تحسدوا. لا تحرصوا، لا تعاندوا. لا تحبوا الدنيا. بمعنى أنهم يقولون لهم غيروا فطرتكم. وهو تكليف لا يطيقونه في الظاهر. ولكن يقولون لهم : اصرفوا وجوه هذه الصفات إلى أمور الخير، غيروا مجراها، فعندئذ تجدي النصيحة وتؤثر في النفوس، وتكون ضمن نطاق إرادة الإنسان واختياره."[٣]

هذا شأن الإنسان عموما، أما الإنسان الكامل الموكولة إليه رسالة إنجاز المشروع الأخلاقي الشمولي، فإن أحاسيسه / لطائفه، ضمن مرادفات النورسي، يوجهها نحو المقصود الأساس وهو عبادة الله حتى يقترب من كمال الصحابة الكرام: "فالإنسان الكامل هو - كالصحابة الكرام - يسوق جميع تلك اللطائف إلى مقصوده الأساس وهو عبادة الله. فيسوق القلب كالقائد كل لطيفة منها ويوجهها نحو الحقيقة بطريق عبودية خاص بها. عند ذلك تسير الكثرة الكاثرة من اللطائف جنودا في ركب عظيم وفي ميدان واسع فسيح، كما هو لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم."[٤]

---

(١) نفسه "الملاحق" ص ٢٧٨.

(٢) نفسه "المكتوبات" ص ٤٠.

(٣) نفسه ص ٤١.

(٤) نفسه "الكلمات" ص ٥٨٢.

وإذا تساءلنا: هل كان تصور النورسي لهذا الإنسان الكامل طوبا ويا متوهما، أم كان متحققا في المجتمع الإنساني؟ يجيبنا بالتدرج من النموذج الأكمل:وهو الرسول الأكرم والدليل الأعظم إلى الله، قد أظهر جميع ما بيناه من كمالات الإنسان وقيمته ومهمته ومثله، فأظهر تلك الكمالات في نفسه، وفي دينه، بأوضح صورة وأكملها، مما يدلنا على: أن الكائنات مثلما خلقت لأجل الإنسان أي أنه المقصود الأعظم من خلقها والمنتخب منها، فإن أجل مقصود من خلق الإنسان أيضا وأفضل مصطفى منه، بل أروع وأسطع مرآة للأحد إنما هو محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يعرض نماذج بشرية متحققة في واقعنا المعيش وهم بعد الأنبياء - الصحابة الكرام " هم كمل الأولياء، من حيث إنهم فرغوا كل طاقاتهم لله الواحد الأحد، وكانوا بذلك أعلم الخلق - بعد الأنبياء - بالله جل جلاله، وكانوا نماذج الإنسان الكامل"[١]

كما يعرض لإشكالية تحقق هذه النماذج في القرون الموالية وفق رؤيته الواقعية وتوقيره لجيل الصحابة رضوان الله عليهم:

حقيقة أن الصحابة الكرام هم كمل الأولياء لقربهم وتتلمذهم على الإنسان الكامل، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، واستمدادهم من نور القرآن الكريم لكن هذا النور ساطع ومتيسر للإنسان في كل زمان، لذلك " فإن الأولياء الصالحين، والعلماء الأصفياء هم ثمار استمدت من شجرة القرآن الكريم، فتكاملهم الحيوي يدل على أن شجرتهم المباركة هي ذات حياة وعطاء، وذات فيض دائم وذات حقيقة وأصالة."[٢]

وعدة الإنسان للرقي إلى مرتبة الإنسان الكامل، كل جوارحه المسوقة إلى عبادة الله، إذ " لو كان الإنسان مجرد قلب فقط، لكان عليه أن يترك كل ما سواه تعالى، بل يترك حتى الأسماء والفات ويرتبط قلبه بذاته سبحانه. ولكن للإسنان لطائف كثيرة جدا كالقلب، منها العقل والروح والسر ن كل لطيفة منها مكلفة بوظيفة ومأمورة للقيام بعمل خاص بها "[٣]

---

(١) نفسه ص ٥٨٢.

(٢) نفسه "الكلمات" ص ٥٢٠.

(٣) نفسه ص ٥٨٢.

بهذه الإشارات القوية المستمدة من حسن إنصات الأستاذ بديع الزمان النورسي للقرآن الكريم، تمكن من الوصول إلى هذاالمفهوم النوري للإنسان الكامل، يوكل إليه أمر إسعاد الإنسانية وتوجيهها إلى الخير، وعلى ركائزه ينبني مشروعه الأخلاقي. فما هي بعض تفاصيل هذا المشروع ؟.

– المشروع الأخلاقي النوري: يؤكد فريد الأنصاري في دراسته المفتاحية للنورسي ورسائله على أن "الأخلاق مفتاح الإصلاح"[١]. بل يؤكد على قيام مشروعه الإصلاحي على المفهوم الشمولي للأخلاق" ويعتبرها باب الخروج من الأزمة، صلاحا وإصلاحا. إذ بصلاحها ينهض الناس بالأمانة، وبفسادها يتمردون عليها ويخونونها. فهي غاية ووسيلة في الآن نفسه، وهي مادة التربية وهي مقصدها "[٢]

وإن كنا نعرض هنا للمشروع الأخلاقي النوري فينبغي التذكير بأنه انتقال منهجي فحسب، وإلا فنحن لم نغادر المفهوم النوري للإنسان الكامل عدة وعماد هذا المشروع: فبسلوكه طريق المعراج القرآني" الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان. ونحن اخترنا هذا الطريق"[٣]، بهذا السلوك يترقى الإنسان نحو الإنسان الكامل.

وبآلية المجاهدة الوجدانية الدائمة تتم الصناعة التربوية العميقة للإنسان كما أشار المرحوم الأنصاري في دراسته "الكونية الأخلاقية بين علوم القرآن وعلوم الإنسان"[٤]. فيرشدإلى الإدراك العجيب عند الأستاذ بديع الزمان النورسي إلى ما أدت إليه هذه المجاهدة من عروج الإنسان نحو الكمال بقيادة راشدة رشيدة للإنسان الكامل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فتحولت " هذه الأقوام المختلفة البدائية في هذه الصحراء الشاسعة، المتعصبين لعاداتهم، المعاندين في عصبيتهم وخصامهم، كيف رفع هذا الشخص جميع أخلاقهم السيئة البدائية وقلعها في زمان قليل دفعة واحدة ؟ وجهزهم بأخلاق حسنة عالية، فصيرهم معلمي العالم الإنساني وأساتذة الأمم المتمدنة "[٥]

---

(١) الدكتور فريد الأنصاري " مفاتح النور " ص ٣٦٦.
(٢) نفسه ص ٣٦٧.
(٣) الأستاذ بديع الزمان النورسي " صيقل الإسلام" ص ١٢٣.
(٤) الدكتور فريد الأنصاري ص ٢١٩ من أعمال المؤتمر العالمي السادس لبديع الزمان النورسي.
(٥) الأستاذ بديع الزمان النورسي " الكلمات " ص ٢٥٨.

بهذه العلاقة الجدلية بين المشروع الأخلاقي ومفهوم الإنسان الكامل يتم العروج والترقي بعد مجاهدة دائمة ليست نزهة بقدر ماهي عملية وجدانية، تنتقل بالطبيعة البشرية من طين العادات إلى ماء العبادات، حسب العبارة البيانية البليغة للمرحوم الأنصاري " في دراسته " الكونية الأخلاقية بين علوم القرآن وعلوم الإنسان "[١]

فإذا سعينا إلى معالجة مفهوم الأخلاق في مشروع الأستاذ بديع الزمان النورسي، فصلا يقتضيه المنهج فحسب، فأول مايسترعي النظر هو فهمه التجديدي للأخلاق بوصفها نظاما قرآنيا، كما أشارت أغلب الدراسات في المؤتمر العالمي السادس للنورسي، لكن الأنصاري رحمه الله استوعب المفهوم الأخلاقي النوري وميزه عن حصره عند الآخرين في مجال الفضائل: " فرسالة القرآن إنما جاءت لتصنع مجتمعا قائما على أساس الأخلاق، بمعنى كلي. فكل التصرفات البشرية في العلاقات النفسية والاجتماعية والوجودية مع سائر الكائنات إنما هي أخلاق. وهذا مفهوم خاص لمعنى (أخلاق)، الذي يحصره بعضهم فقط في مجال (الفضائل) بمعناها الاجتماعي الصرف. و(الفضائل) في المعنى السائر المتأثر بالدلالة الفقية - مفهوم موح بنوع من النفل الزائد، الذي يفعله الإنسان تطوعا. وهذا معنى فرعي، بينما تصور النورسي للأخلاق قائم على أنها (أصول) لا (فروع).[٢]

وثاني ما يسترعي النظر أنه مفهوم شمولي لأنه يتدرج في مكونات المشروع الأخلاقي من أعلاها وهي الأخلاق الإلهية فالنبوية فالإنسانية فالوحشية وهي أدناها. ومن هنا نفهم تأكيده على صلتها بالإنسان الذي يوكل إلى الكامل منه أمر القيادة والقدوة، كما فعل الأنبياء.

وأما آليات المعراج والترقي بالمجاهدة النفسية الدائمة للإنسان، فتقتضي منهجيا الترقي من الأدنى إلى الأعلى، لذلك تقترح من النماذج ما تحقق في المجتمع الجاهلي الذي ترقت به القيادة الراشدة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى مجتمع راشد مهيئ للصلاح والإصلاح، أما في مجال المناهج والنظم فتقترح ما يمثله القرآن الكريم بوصفه نظاما للأخلاق. لنستمع للأستاذ بديع الزمان النورسي وهو يحيل على شهادة غوستاف لوبون في توضيح هذه الخصيصة القرآنية: "إن أصول الأخلاق في القرآن

(١) الدكتور فريد الأنصاري ص ٢١٩ من أعمال المؤتمر العالمي السادس لبديع الزمان النورسي.
(٢) نفسه ص ٢٠٦.

عالية علو ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها. وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق (...) إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه، فالديانات التي لها من السلطان على النفوس قليلة جدا، وقد لا تجد دينا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم.[١]

ورغم استمداد النورسي مشروعه الأخلاقي من نظام القرآن العظيم، إلا أنه في تصوره الشمولي لهذا المشروع يدرج ما هو إلهي وما هو إنساني وما هو اجتماعي وما هو وحشي، ويرسم معارج للرقي من الأدنى إلى الأعلى كما سنعرض لها وفق سلم الترقي والاقتضاء المنهجي:

فأما الأخلاق الوحشية الرذيلة فهي رذيلة حسب عبارة بديع الزمان النورسي لأن: "أس أساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الإنساني، إنما هو كلمة واحدة. كما أن منبع جميع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضا :

الكلمة الأولى : إن شبعت فلا علي أن يموت غيري من الجوع !

الكلمة الثانية : اكتسب أنت، لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا !

نعم، لايمكن العيش بسلام ووئام في مجتمع إلا بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام، أي بين الأغنياء والفقراء."[٢]

وهي وحشية، لأنها أخلاق الجاهلية التي كانت عند العرب بعبارة الأنصاري"[٣]: "ولأن محمدا الهاشمي صلى الله عليه وسلم مع أنه أمي لم يقرأ ولم يكتب، ومع عدم قوته الظاهرة، وعدم ميله إلى تحكم وسلطنة؛ قد تشبث بقلبه بوثوق واطمئنان، في موقع في غاية الخطر وفي مقام مهم - بأمر عظيم، فغلب على الأفكار، وتحبب إلى الأرواح، وتسلط على الطبائع وقلع من أعماق قلوبهم العادات والأخلاق الوحشية المألوفة الراسخة المستمرة الكثيرة. ثم غرس في موضعها في غاية الإحكام والقوة - كأنها اختلطت بلحمهم ودمهم - أخلاقا عالية وعادات حسنة. وقد بدل قساوة قلوب قوم

---

(١) غوستاف لوبون "حضارة العرب " ص ٤٣١ نقلا عن كتاب الأستاذ بديع الزمان النورسي " إشارات الإعجاز ص ٢٨٥ ".

(٢) نفسه " الكلمات " ص ٤٧٤.

(٣) الدكتور فريد الأنصاري " مفاتح النور " ص ٣٦٤.

خامدين في زوايا الوحشة بحسيات رقيقة، وأظهر جوهر إنسانيتهم، ثم أخرجهم من زوايا النسيان ورقي بهم إلى أوج المدنية، وصيرهم معلمي عالمهم.[١]

عملية توجيه الأحاسيس وتحويلها والرقي بها لتنهض بالإنسان من المستوى الأدنى إلى الإنسان الكامل هي جوهر هذه الإشارة ومثيلاتها عند الأستاذ بديع الزمان النورسي، وهي التي حولت عرب الجاهلية إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمثلوا أروع نموذج لهذا الإنسان الكامل المتحقق في الواقع المعيش، كما أشار إليها في أكثر من موقع من رسائل النور.[٢]

أما المرتبة الموالية في سلم الترقي الأخلاقي فهي الأخلاق الاجتماعية التي انتقلت إلى غير المسلمين " فوا أسفى! إنه مثلما انتقلت محاسننا إلى غير المسلمين؛ فسجايانا الحميدة هم الذين سرقوها كذلك! وكأن قسما من أخلاقنا الاجتماعية السامية لم يجد رواجا عندنا، فنفر منا والتجأ إليهم، وإن قسما من رذائلهم لم يلق رواجا عندهم فجلب إلى سوق جهالتنا."[٣]. ولا يفوته التعريض بالسياسة فيحملها مسؤولية رواج هذه الأخلاق الاجتماعية حين يقول: "صار الصدق والكذب يعرضان معا في معرض واحد، ويصدران معا من مصدر واحد ففسدت الأخلاق الاجتماعية واختلت موازينها. وزادت الدعايات السياسية إخفاء قبح الكذب المرعب وستر جمال الصدق الباهر."[٤]

ثم نرقى إلى الأخلاق الإنسانية المشتركة مع المجتمع الإنساني، لأنها حسب الأنصاري - خصال الفطرة الإنسانية الضرورية للوصول إلى الحق -[٥] يلمح الأستاذ النورسي إلى وجودها وانتساب وتخلق البشرية بها لكنها تحتاج إلى التحول من الفطرية إلى التسديد والاستقامة بفضل المنهج الأخلاقي النوري لذلك فأيسر الطرق في الأخلاق الإنسانية، وأنفعها، وأقصرها، وأسلمها، هي في الصراط المستقيم وفي الاستقامة".[٦]

---

(١) الأستاذ بديع الزمان النورسي "صيقل الإسلام " ص ١٤٨.

(٢) نذكر منها الكلمات ص ٥٧٤ و٥٨٢

(٣) نفسه "صيقل الإسلام" ص ٤١٥.

(٤) نفسه "الكلمات ص ٥٧٥ ".

(٥) الدكتور فريد الأنصاري "مفاتح النور ص ٣٥٩ ".

(٦) الأستاذ بديع الزمان النورسي "الشعاعات " ص ٦٤٩.

وهو بهذا التلميح إلى حاجة البشرية إلى التسديد إنما يوجه الإنسان للرقي إلى أعلى المراتب والغايات في مشروعه الأخلاقي الشمولي وصولا إلى الأخلاق الإلهية إذ: "الغاية القصوى للإنسانية، والوظيفة الأساسية للبشرية، هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة التي يأمر بها الله سبحانه، وأن يعلم الإنسان عجزه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبح ويقدس كماله تعالى"[١]

ألمحنا إلى ما قمنا به من الفصل المنهجي بين محور "الإنسان الكامل" ومحور "المفهوم الشمولي للأخلاق"، ولعلنا في مفهوم الأخلاق الإلهية سنعيد التلاحم بين المحورين حتى تتحقق العلاقة الجدلية بينهما، وندرك معنى قيام الإنسان الكامل ببناء هذا المشروع الأخلاقي:

فالوصول عند معراج التخلق بالأخلاق الإلهية يستدعي متابعة الأستاذ بديع الزمان النورسي في تأويله لقول الله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأحزاب : ٧٢). فمن الخزينة العظمى لهذه الآية الجليلة، سنشير إلى جوهرة واحدة من جواهرها، وهي أن الأمانة التي أبت السماوت والأرض والجبال أن يحملنها، لها معان عدة، ولها وجوه كثيرة. فمعنى من تلك المعاني، ووجه من تلك الوجوه هو " أنا ". نعم إن أنا بذرة، نشأت منها شجرة طوبى نورانية عظيمة، وشجرة زقوم رهيبة، تمدان أغصانهما وتنشران فروعهما في أرجاء عالم الإنسان من لدن آدم عليه السلام إلى الوقت الحاضر.[٢]

هكذا فالبذرة المنتجة لشجرة طوبى النورانية، هي التي تنتج الإنسان الكامل في أحسن تقويم بوعي وعلم ونفس. فالذي يعرف ماهية " أنا " على هذا الوجه ويذعن له، ثم يعمل وفق ذلك وبمقتضاه يدخل ضمن بشارة قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: ٩)، ويكون قد أدى الأمانة حقها "[٣] حتى يشيد المشروع الأخلاقي الإلهي. أما

---

(١) نفسه "الكلمات " ٦٤٢.

(٢) الأستاذ بديع الزمان النورسي "الكلمات " ص ٦٣٥.

(٣) الأستاذ بديع الزمان النورسي "الكلمات" ص ٦٣٧.

البذرة المنتجة لشجرة زقوم الرهيبة فتنتج الإنسان الظلوم الجهول في أحسن تقويم كذلك لأنه صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولكن إذا نسي " أنا " حكمة خلقه، ونظر إلى نفسه بالمعنى الإسمي، تاركا وظيفته الفطرية، معتقدا بنفسه أنه المالك، فقد خان الأمانة، ودخل ضمن النذير الإلهي: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ١٠).[1]

هكذا نقترب من مفهوم الإنسان الكامل المستمد من نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة، لاكتساب معناها الكوني، ولتأسيس المشروع الأخلاقي النورسي متدرجا من الأخلاق الوحشية فالاجتماعية فالإنسانية وصولا إلى الأخلاق الإلهية.

٣ – عودة إلى الفرضية: نعود إلى الفرضية التي طرحناها في بداية هذه الدراسة بغاية التحقق من صحتها أو دحضها، فنشير إلى صحتها إذا استثمرنا إيحاءات الأستاذ بديع الزمان النورسي بين ثنايا مشروعه الإصلاحي، وتلميحاته إلى أن الإنسان الكامل متحقق في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام في فترة خير القرون، لكن الاستمداد من نور القرآن الكريم ونظامه الأخلاقي يؤدي إلى سعي الإنسان في كل زمان إلى الرقي عبر معراج الانتساب الإيماني من درجة الأخلاق الوحشية إلى الاجتماعية فالإنسانية فالإلهية وصولا إلى مرتبة الإنسان الكامل.

وأنا أتابع روايتي المرحوم فريد الأنصاري " آخر الفرسان " و" عودة الفرسان " طرحت سؤالا: ماهي دلالة الآخر في نسبتها إلى المفكر المجدد بديع الزمان النورسي، ودلالة العودة في سيرة محمد فتح الله كولن؟.

هل كان وهو يتأمل في المشروع الإصلاحي النوري يبحث عن درجة تحقق هذا المشروع؟ وهل توخى تحققا للإنسان التواق إلى الكمال في هذين النموذجين؟

سؤالان مشروعان لكنهما يقتضيان جوابا من المرحوم الأنصاري الذي غادرنا وفي صدره شيء من رسائل النور، غادرنا وهو موجه إهداء الرواية "عودة الفرسان " على الشكل التالي:

أما هذه الورقات فإنني أهديها لكم أنتم شباب العالم العربي..

عسى أن نبصر موقع الرأس من أمتنا..

---

(١) الأستاذ بديع الزمان النورسي " الكلمات" ص ٦٣٨.

فنسلك الاتجاه الصحيح "

إنه إهداءعميق الدلالة لشباب العالم العربي بحثا عن موقع الرأس من أمتنا، ومن تكون هذه الرأس إن لم تكن كناية عن الإنسان الكامل أو من في الطريق إليه ؟؟؟؟؟.

أختم بالإشارة إلى أننا خلال هذه المقاربة لمفهوم الإنسان الكامل تعمدنا إغفال مفاهيم مجاورة من أمثال الإنسان الحق والإنسان الكلي، ومقاربة مقارنة لهذا المفهوم عند فلاسفة ومتصوفة آخرين من أمثال الإمام فخر الدين الرازي والشيخ الأكبر ابن عربي والشيخ عبد الكريم الجيلي والشيخ عبد الغني النابلسي والشيخ محمد بهاء الدين البيطار والشيخ صدر الدين القونوي والشيخ كمال الدين القاشاني والشريف الجرجاني والشيخ عبد الكريم الجيلي لأننا نسعى في هذا الحوار الأكاديمي حول فكر النورسي، إلى التدقيق في جانب مرجئين النظر في بعض الجوانب الأخرى إلى حوارات أكاديمية مقبلة. حوارات مستنيرة بنور القرآن كما استوعبه واهتدى إليه الأستاذ بديع الزمان النورسي، فاقترح منذ الألفية الثانية الحلول الواقعية الناجعة لما تعانيه الإنسانية من المشاكل والأزمات في هذه الألفية الثالثة.

المصادر والمراجع :

– القرآن الكريم.

- كليات رسائل النور للأستاذ بديع الزمان النورسي ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي طبعة دار سوزلر للنشر فرع القاهرة / مصر الطبعة الثانية ١٤١٢ ه ١٩٩٢ م.

– أعمال المؤتمر العالمي الخامس لبديع الزمان النورسي "النظرة القرآنية للإنسان من خلال رسائل النور" البحوث العربية طبعة شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع إسطنبول / تركيا الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢ م.

– أعمال المؤتمر العالمي السادس لبديع الزمان سعيد النورسي "العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور" البحوث العربية طبعة شركة نسل إسطنبول / تركيا سنة ٢٠٠٤ م.

– الدكتور فريد الأنصاري (مفاتح النور) طبعة سوز سنة ٢٠٠٤ م إسطنبول / تركيا.

– الدكتور فريد الأنصاري "عودة الفرسان " طبعة دار النيل ط ١ سنة ١٤٣١ ه ٢٠١٠ م.